"اعرف عدوك... اعرف نفسك"

ومسألة الصراع المستمر

-١-

في مختلف أشكال الصراعات تبدو قاعدة (اعرف عدوك) قاعدة حيوية، وربما مصيرية. إنها تقتضي تقصياً دقيقاً لعناصر قوته وعناصر ضعفه، ومتابعة متأنية صبورة ومستمرة لاحتمالات حركته التي يحدد مسارَها وطبيعتَها وأهدافَها المؤقتة والعامة ذلك التفاعلُ بين مجموعتي العناصر تلك... وتعطي الفرصة-بالتالي- لإحباط مستجرات عناصر القوة إن أمكن، أو على الأقل لتفادي الكثير من أضرارها في حال استخدامها، مثلما تعطي الفرصة لاستثمار عناصر الضعف، والنفوذ عبر الثغرات الموجودة فيها إلى أسس عناصر القوة وتعطيلها جزئياً أو كلياً تعطيلاً دائماً أو مؤقتاً حسب الإمكانات المتاحة.

و(معرفة العدو) لن تكون صحيحة ولا مجدية ما لم تكن (معرفة الذات) متحصلة بشكل دقيق أيضاً. فكلتا المعرفتين تشترط الأخرى. ومن دون ذلك لن يكون هناك نصر في حال السعي إلى تحقيقه. ويجب أن نلاحظ أن أي نصر ذي طبيعة استراتيجية ليس إلا محصلة لتركيم انتصارات تكتيكية، ربما كان الكثير منها- بالنسبة للطرف الأضعف- مجرد منع لوقوع الهزائم الماحقة، أو حتى مجرد عرقلة لها كي يكون أذاها أقل

ضرراً وخسائرها أقل فداحة.

-٢-

في الصراع العربي الصهيوني اعتمدت معرفتنا للعدو ولذاتنا أيضاً، على الانفعال العاطفي الذي وجد في "الخطب الحماسية" تعويضاً عن بؤسه المعرفي... لكن ذلك أدى إلى مزيد من الانتكاسات في صفوف العرب، مثلما أعطى العدو ذرائع كافية- كلما أراد- على الانتقال خطوة أو خطوات إلى الأمام في تنفيذ المخططات المرحلية لمشروعه في صيغته النهائية.

ومع الهزائم المتواصلة للمشروع القومي العربي في مواجهة المشروع الاستيطاني الصهيوني -منذ بدايات الاستيطان الفعلي المكثف بعد الحرب العالمية الأولى مروراً بإقامة (الدولة) بعد الحرب العالمية الثانية ثم بالتوسعات اللاحقة بعد هزيمة العرب عام ١٩٦٧... وصولاً إلى الحلم الصهيوني الراهن (بإسرائيل العظمى)- لم ينجز غالبية العرب وعياً حقيقياً لا بالذات ولا بالآخر، وبالتالي لم يتم التعامل مع معطيات الواقع بكفاءة وكفاية على المستوى السياسي وغير السياسي مع استثناء سورية عن جدارة واستحقاق في أدائها السياسي والعسكري والمعرفي العام خلال العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين.

وبألاعيب السادات خلال حرب تشرين ثم زيارته للقدس المحتلة- تلك الزيارة الغريبة بالفعل- وصولاً إلى اتفاقيات كامب ديفيد... وما ترتب على ذلك كله، وبألاعيب السيد ياسر عرفات منذ السبعينيات- وكانت من الأسباب المباشرة للحرب الطويلة في لبنان- وصولاً إلى رفضه التنسيق بين الوفود العربية في مدريد، ثم عقده صفقة أوسلو... وما تلاها من مستجرات

محبطة، وبدخول النظام العراقي حربين في منطقة الخليج لا مسوغ لهما أصلاً ناهيك عما استجرتاه من وضع كارثي على العراق وعلى إمكانية وحدة الصف العربي... بذلك كله، في إطار التغيرات الدولية العاصفة، سقط "الخطاب الحماسي" العربي وادعاءاته غير المتوازنة ولا الموزونة، وحل نوع من (اليأس العام) لدى كثير من العرب محل ما كان ذلك الخطاب يرسيه من أوهام متناقضة إلى حد بعيد مع ممكنات الواقع. فأخذ العدو يتقدم بسرعة في اختراقاته للأوضاع العربية المتردية أصلاً، محققاً بذلك انتصارات لم يكن هو ذاته يحلم بها، بينما وجدت أنظمة عربية كثيرة (فرصتها!) المناسبة للتخلص من (كابوس المشروع القومي العربي!) وللاستسلام والإذعان لما يطلبه العدو. ووصل الأمر إلى درجة أن ذلك كله (أربك) هذا العدو لفترة وجيزة بمتحصلاته التي قلنا أنه لم يكن يحلم بمثلها أبداً.

وفيما ظلت سورية تعمل- بقدر إمكاناتها- على رأب هذه الصدوع الغريبة العجيبة غير المتوقعة، أخذت صورة العدو تبرز في الوعي العربي العام لها على أنها: (صورة ذات تماسك صواني لا يمكن اختراقه!)، بل ربما لا يمكن لجم اندفاعته المفاجئة عن تحقيق أهدافه النهائية!

-٣-

إن عناصر قوة كل طرف من طرفي هذا الصراع إنما هي عناصر متولدة من عناصر ضعف الطرف الآخر، ولأن السياسة في نهاية المطاف هي (فن الممكن)، وفن استغلال ما يتيحه هذا الممكن من (كسب أوراق) للمستقبل فإن ما يجري الآن من

مفاوضات بين سورية وبين العدو الصهيوني لا يمكن له أن يكون أمراً يسجن ذاته في أوهام فائتة ولا في أحلام غير واقعية. إنه–أي أمر المفاوضات– جزء من المعركة الكلية لكسب حقوق وطنية يمكنها أن تضمن إمكانية النهوض بالمشروع القومي ذاتَ برهة من التاريخ القادم، وهذا ما تأكد، إذ إن (المفاوض السوري) ثابت الموقف في العمل على إقراره، دون أن (يتورط!) في التوقيع على أي التزام للخصم يصادر على ما قد يقدمه المستقبل للأجيال القادمة: لا في سورية ولا في غيرها من بقية بلدان العرب.

-٤-

ما جرى ويجري يقتضي إعادة النظر في طرائق فهمنا للعدو:

- تركيبه الاجتماعي المتناقض والمتصارع، ومدى تأثير ذلك على استمرار الوجود الاستيطاني.
- تلفيقة وجوده، ومدى قابليتها للاستمرار في ضوء عدد اليهود في العالم وتوجهاتهم المختلفة، وفي ضوء امتلاكهم لجزء كبير من الرساميل العالمية.
- صلتهم بالإمبريالية ومدى مقدرة النظام الإمبريالي ذاته على الاستمرار تاريخياً.
- الثقافة الصهيونية وأطروحاتها العنصرية، وجمود قابلياتها التطورية، وما يترتب على ذلك مستقبلاً.
- حجم الأهداف وأمداؤها التوراتية التلمودية، ومدى المقدرة على تحقيقها في ضوء ما سبق.

- معنى (نظرية الأمن الصهيوني) ومستجراتها، وهل في ذلك ترسيخ حقيقي للوجود الاستيطاني، أم إن في الأمر برمته عملية (هروب إلى الأمام)، ولماذا؟
- وبالطبع ينضاف إلى ذلك كثير من الأمور التي لا مجال لتعدادها في هذا الحيز.

وبالمقابل، قد تكون إعادة النظر في طرائق فهمنا (للذات العربية) عبر صلاتها بتاريخها من جهة، وبالعالم من جهة أخرى، وبالعدو –في إطار ذلك– من جهة ثالثة، هي الأمر الأكثر لزوماً وإلزاماً لنا.

في النتيجة ربما كان الصراع في المراحل المقبلة صراعاً معرفياً أولاً بين المشروعين: الصهيوني، والقومي العربي. وهذا ما يفترض تغييراً واسعاً في الطرائق الإجرائية لإدارة حياتنا العامة. والأهم هو أن الأمل باقٍ وراسخٌ ويجب تعزيزه بذلك التغيير الحازم.

❑❑